تفسير سورة الأحقاف

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٢٦ ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾

يخبر تعالى انه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وأجلٍ مُسمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الارض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله لله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الاصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى: دليل بيِّن على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثَرَة من علم» أى: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثر علما. قال ابن عباس: أو بينة من الامر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شىء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو بكر بن عياش أيضا : ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط . وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع

ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد، حجارة، صُمّ. وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

يقول عز وجل مخبرا عن المشركين في كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدا ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني ـ وليس كذلك ـ لعاقبني أشد العقوبة، ولم يَقْدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد. وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر لكم ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك. ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: ما أدري بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا

Obeikandl.com

بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلى ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذى عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ؟

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدرَجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ : «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ : «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ : «ذاك عمله». فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به »[1] . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىّ من الوحى، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النَّذَارة، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله علىّ لأبلغكموه وقد كَفَرتم به وكذبتموه ، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أى: وقد شهدت بصدقه

(١) المسند (٦/٤٣٦) والبخارى (١٢٤٣ . ٢٦٨٧) .

وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَآمَنَ﴾ أى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] قال مسروق، والشعبى: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم، واختاره ابن جرير. وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾. رواه البخارى ومسلم والنسائى[1]. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف ابن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون: بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أى: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فيتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر الحق، وغَمْط الناس»[2]. ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»[3]. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

(١) البخارى (٣٨١٢) ومسلم (٢٤٨٣/ ١٤٧) والنسائى فى الكبرى (٨٢٥٢) .
(٢) مسلم (٩١ / ١٤٧) . (٣) الآية رقم (٣٠) من سورة فصلت .

وَلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] وقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا [1] ﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وروى أبو داود الطيالسى عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية .ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه [2].

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا من المطلق وشدته، ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدل على بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أى : قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أى: ألهمنى﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أى: فى المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أى نسلى وعقبى، ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُتَقَبَّلُ [3] عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أى: هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾. روى ابن جرير عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له فى الجنة » قال : فدخلتُ على يزداد فَحُدِّث بمثل هذا الحديث قال: قلت:

---

(١) « حسنا » قراءة الجمهور ، وبها قرأ الحافظ ابن كثير .

(٢) المسند للطيالسى (٢٠٨) ومسلم (١٧٤٨/٣٣) وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذى (٣٠٧٩) .

(٣) « يتقبل ـ يتجاوز » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .

فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ . وهكذا رواه ابن أبى حاتم وزاد: « عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته »(١) فذكره، وإسناده جيد لا بأس به.

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما. وروى البخارى عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذى انزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذرى (٢).

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أى: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿ أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع عمر بن الخطاب عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إنى أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرَّعهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٦ / ١٢) .
(٢) البخارى (٤٨٢٧) .

طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ . وقال أبو مِجْلَز: ليتفقَّدَنَّ أقوامٌ حَسَنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ .

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

ربع ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حقف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب : الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر. روى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «يرحمنا الله، وأخا عاد »(١) .

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] .

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأنى أنى أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم ، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذى قلتم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

---

(١) ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

﴿تُدَمِّرُ﴾ أى: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشىء البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ(١) إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أى: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، روى الإمام أحمد عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَّبَذَة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «معْزَى حَمَلَت حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد ؟ » ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان» ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال : اللهم، إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمددا، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف» (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا » . وأخرجاه (٣) . وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به » . قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا

---

(١) « ترى»: قراءة الجمهور ، وكذا الحافظ ابن كثير. (٢) مضى تخريجه هناك عند الآية (٧٣).
(٣) المسند (٦/ ٦٦) والبخارى (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم (٨٩٩/ ١٤).

عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾»(١) . وقد ذكرنا قصة هلاك عاد فى سورتى «الأعراف وهود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة فى الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أى: وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أى: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ يعنى: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا. ﴿وصرفنا الآيات﴾ أى: بيناها ووضحناها، ﴿لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة﴾ أى: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أى: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وذلك إفكهم﴾ أى: كذبهم، ﴿وما كانوا يفترون﴾ أى: وافتراؤهم فى اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

روى الإمام أحمد والحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال

(١) مسلم (٨٩٩/١٤) .

بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له،فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن:١] ، وإنما أوحى إليه قول الجن.رواه البخارى بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير(١) .

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض. ورواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح(٢) . وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة،فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى: ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٣) . فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج .

فأما ما رواه البخارى ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود ـ أنه آذنته بهم شجرة(٤) فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال

(١) المسند (٢٢٧١) والبيهقى (٢/ ٢٢٥) والبخارى (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩/ ١٤٩)والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى (١١٦٢٤/ ١).
(٢) المسند (٢٤٨٢) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى (١١٦٢٦/ ٤).
(٣) المستدرك (٢/ ٤٥٦) من طريق أبى بكر بن شيبة به ، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.
(٤) البخارى (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠).

استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه (١) .

ذكر الرواية عنه بذلك :

روى الإمام أحمد عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم،فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله ـ فذكروا له الذى كانوا فيه ـ فقال: «إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » .

وهكذا رواه مسلم نحوه (٢) . وروى مسلم أيضا عن عامر قال : سألت علقمة: هل كان ابن مسعود ، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » . قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (٣) .

فهذه تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى.وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقى، عن سعيد بن عمرو، قال: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة » . فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام

---

(١) البيهقى فى الدلائل (٢/٢٢٧).

(٢) المسند (٤١٤٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠).

(٣) مسلم ٤٥٠/ ١٥٠).

اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة ؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما». أخرجه البخارى قريبا منه (١) . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولا من وجه جيد، فروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم (٢) . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشىء قط: «إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مر به رجل جميل، فقال : لقد أخطأ ظنى ـ أو : إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ على بالرجل ، فدعى له ، فقال له ذلك، فقال : ما رأيت كاليوم استُقبل به رجل مسلم . قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرَ الجنَّ وإبلاسَهَا ويَأسها من بعد إنكَاسِها

ولحُوقَها بالقلاص وأحلاسِها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى. هذا سياق البخارى(٣) ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم »(٤) . وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى فى سيرة عمر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أى: استمعوا وهذا أدب منهم. وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى: فرغ، كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ [الجمعة: ١٠] ، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُر، وليس فيهم رسل. ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى(٥) إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] ، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

(١) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٣٣) والبخارى (٣٨٦٠).
(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦/ ٢٢).
(٣) البخارى (٣٨٦٦).
(٤) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٤٥).
(٥) «يوحى»: هى قراءة كما مضى بيانه.

obeikandl.com

الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة ابن نوفل، حين أخبره النبى ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذي كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجارى كافرهم بالنار ـ وهو مقام عدل ـ فلأنْ يجارى مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] ، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها

(١) «كلمات»: قراءه سبعية كما مضى بيانه.

خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] ، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ اى: لا يجيرهم منه احدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكْرثهُ خَلْقُهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال متهددا ومتوعدا من كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق، أفسحر هذا، أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ اى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سُورَتَى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرُّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أى : لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ، كقوله : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لَبْثَ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

obeikandl.com